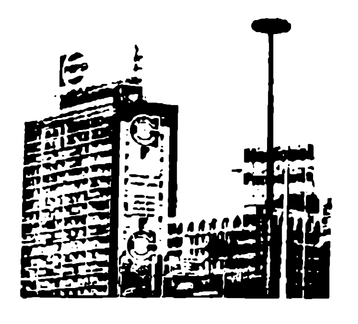
قصص

أحمد زغلول الشيطي

عرائس من ورق



شرقيات

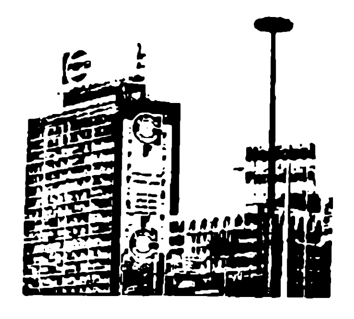


عرائس من ورق

الطبعة الأولى ، ١٩٩٤

٥ شارع محمد صدقى ، من شارع هدى شعراوى
باب اللوق ، القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣

الشكل على الغلاف :
معالجة جرافيكية لقسم من صورة فوتوغرافية ملونة
للفنان : **يوسف عبجى**
تصميم الغلاف : **محيى الدين اللباد**



عرائس من ورق

أحمد زغلول الشيطي

دار شرقيات للنشر والتوزيع

موج

أشارت إلى الضفة الأخرى، خلف مراكب الصيد الراسية، قالت: ولدت هناك. أخذ كفها بين كفيه، شعر ببرودة أصابعها، قال: كنت معي طوال الليل. كان الرصيف الموازي خالياً، والدكاكين مغلقة، وكانت هبات الهواء تطير شعرها، توقفت، جمعت شعرها إلى الخلف، قالت: لا أعرف في أى بيت. وجهها تجاه كتلة البيوت البعيدة، ابتسمت، قالت: ولم أر الفنار أبداً. قال: حلمت أنك كنت عارية أمام مرآة، وكنت تبكين، وكانت قطرات الدموع تنفجر فوق نهديك. اقتربت، أحس بجسمها قريباً من جسمه، وأنفاسها دافئة على وجهه، قال: تتحول إلى مدينة مهجورة في الشتاء. كانت القطط تعبث بزبالة الصيف الفائت بين العشش المقفلة. قال: كنت لا أعرف طوال الحلم من أين تأتين بكل هذه الدموع. توقفت، نظرت في وجهه، قالت: كنت تتألم؟ قال: طوال الليل كنت أحبك. كان صوت البحر يأتي عبر الطرق الرملية، وكان الفنار بعيداً، فكر أنه على الضفة الأخرى للنهر، ولد ذات يوم حزن صغير.

عرائس من ورق

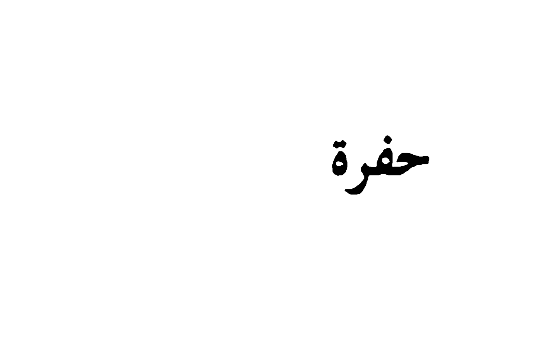
كان البيت الكبير محاطاً بأكوام زبالة يتصاعد منها الدخان. مشى بمحاذاة الجدار. وقف أمام الباب المغلق. نظر إلى نافذة الطابق الرابع، كانت مغلقة هي الأخرى. فكر أنها لن تسمع نقر أصابعه على الزجاج بين أسياخ الحديد المشغول مهما حاول، وأن أحداً من االسكان الآخرين لن يفتح له. تذكر أنها قالت إن لكل رجل مفتاحه وإنهم بذلك يمنعون الأغراب من الدخول. راح ينقر على الزجاج يائساً ثم تراجع خطوتين إلى الوراء ونظر إلى النافذة. كانت الشمس تضرب رأسه، وكان الچاكت الصوفي ساخناً على جسمه. فكر: أيخافون هروب النساء في غيابهم؟. راح يدور حول البيت، ويتطلع إلى النوافذ وإلى حبال الغسيل الخالية. هل رحلوا جميعاً؟ لم يكن ثمة صوت، وكان الدخان يتصاعد ويطرد الذباب فيلتصق بالجدران. تذكر آخر مرة قالت له إنها لم تعد تطيق، وإنها تريد أن تأخذ طفليها وتفرّ بعيداً. يذكر أنه جلس في المقعد ثم راح يحلق في وردة بلاستيكية حمراء ملقاة على المنضدة. قالت إنها عملتها من علبة فارغة، أمسكها وقربها من أنفه. كان حائراً بين أن يقول لها اصبري أو اخرجي من هنا فوراً. كانت أفواج الماعز تجرى صوب أكوام القمامة. عاد مرة أخرى إلى الباب وراح ينقر.

يذكر آخر مرة ذهب لزيارتها، كانت تنتظره، شدت الحبل المدلى من الطابق الرابع إلى الباب فانفتح. كانت أكثر نحافة وتحت عينيها هالتان داكنتان، وكانت تبقى فترات طويلة صامتة. قالت إنهم اجتمعوا وحرموا عليها أن تتحدث إلى جارتها في البيت المقابل من خلال النافذة، قالت: لم يعد هناك من تكلمه، وأنها تعمل عرائس

للطفلين من الورق المقوى الذي يأتي مع المأكولات، وأن الطفلين يمزقان العرائس سريعاً، وأنها تخشى عليهما هنا. يومها صعدت البنت إلى حجره ثم بالت عليه وراحت تصرخ.

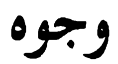
يذكر أنه راح يهبط السلالم قفزاً بينما تصطفق أبواب الطوابق كلها في وجهه إلى أن خرج إلى الشارع ونظر إلى فوق ورآها صامتة في النافذة لاتتحرك وعيناها تنظران إلى بعيد. اهتدى إلى أن ينظر إلى نافذة جارتها. كانت حبال الغسيل محملة بالملابس ولم يكن أحد هناك. كانت الماعز تجري حوله وتحتك به وتمأمىء. فكر أن يكسر الزجاج ويمد يده ويفتح الطبلة. خشي أن يكون الباب مسكوكاً بالمفتاح وأن يسبب لها المشاكل. رجع بين أعمدة الدخان، في نفس الطريق التي جاء منها.

فكر أنها لم تكن تتصور أن يأتي بعد كل هذه الغيبة، ومن خلفه، في نافذة بالطابق الرابع، وقفت امرأة في مقتبل العمر ترقب الطريق صامتة، وعلى خديها تنحدر دمعتان، ومن خلفها كان طفلان يمزقان عرائس من الورق المقوى ويصرخان.


حفرة

رفع يدها عن رقبته، انسحب في هدوء، أغلق باب الحجرة عليها، مشى حافياً فوق بلاط الصالة. بعد أن تأكد من أن كل الأنوار مطفأة، وقف عارياً تحت مياه الدش الباردة، ملأت رائحة الصابون أنفه فأنعشته، فكر أنها تحلم الآن أحلاماً جميلة. سقطت الصابونة، انحنى وراح يفتش عنها بيديه، رفع رأسه من تحت مياه الدش. بدا له أن ثمة خبطاً على الباب الخارجي، مدّ يده بسرعة وأغلق الدش. وقف ساكناً، تأكد أن هناك من يدق الباب بعنف، وأن الدق يأتي مختلطاً بأصوات أخرى، أصوات فيها تهديد ونفاذ صبر. كان الماء يتسايل على جسمه، وكانت ضربات قلبه تطن في أذنيه. فكر أن يعبر الصالة جرياً فيوقظها لترتدي ملابسها ويرتدي ملابسه. انتظر لحظة لعلهم ينصرفون، لكن الدق صار أشد عنفاً، كذلك نبرة الأصوات ازدادت حدة وبان فيها الوعيد. استند بظهره إلى الجدار، شعر بالماء والصابون يتجلدان على جسمه، فكر أنهم سينفذون ماجاؤوا من أجله، وأنه على استعداد لأيِ شيء إلا أن تفزع على أصواتهم، وأنه يجب أن يذهب إليها. خشي أنهم قد يلاحظون وجوده إذا ماعبر الصالة فلا يتراجعون. تذكَر أنها قالت: لاحل، وأخفت وجهها في صدره، وفي ظلام الصالة رأى المقاعد، رأى الحيطان عالية صماء، كذلك رأى الباب يتخلخل. أحس بشلل يسري من قدميه إلى جسمه. لايدرى إن كان ما سمعه صوت صراخ، استغاثة؟ كان حلقه جافاً، واللحظة تتفتت، تفر. لم يعد يعرف ماذا يفعل ولا لماذا لا يفعل. هل كانت تصرخ في الحجرة الآن؟ هل قفز أحدهم من النافذة إليها؟. لايدرى إن كان قد أخذ الصالة في قفزة واحدة أم أن الحيطان تحركت، ولايدرى إن

كان ما بأيديهم مطاوي قرن غزال أم عصي عادية. هو فوجىء بنفسه يقف ملتصقاً بها فوق بلاط الصالة، في حين أن الضوء صار فاضحاً. كانت به رغبة محمومة لأن يغطيها كلها بجسده، وتمنى يائساً أن يحفر حفرة في جسمه ويخفيها داخله، في ذات اللحظة التي وقفوا فيها فوق أنقاض الباب المحطم، يحدقون في جسمها العاري وفي أيديهم المطاوي والعصي. رآهم يتحلقون حولهما في دائرة، ثم سادت برهة صمت بدا له أنها لن تنتهي.


وجوه

وأنت هناك، أسفل الميدان، أمام الضوء المتماوج، واقفاً فوق إسفلت، بين سيارات صاعدة هابطة، كنت هناك، مجنوناً لأول مرة، خارجاً من الصمت والشبابيك المغلقة، من الوجوه الصماء، في الشارع الضيق ذى البواكي والممرات المبلطة، من الحب المستحيل، ويدها المعلقة في صدرك، المتنهدة على صدرك، المنادية لآخر مرة، في الشارع الثعباني، على جانبيه الدكاكين والعطارة وأواني البلاستيك الملونة، وضحكتها البيضاء تطفر فجأة في عينيك، هناك، بالشوارع المظلمة المضيعة.

مجنوناً لأول مرة، ومقتلعاً ومكسوراً، فوق الإسفلت، وإعلانات النيون، والجوارب النسائية والمايوهات وفوط امتصاص الدم، وصور السياحة والمصايف والعمارات.

كنت في الليل والدم والإسفلت، والسيارات تهبط، مجنوناً لأول مرة، تنادي: إيمان. إيمان، بينما ضاعت وانطوت.

كانت قالت: أحبك، قالت أحبك وانكمشت في صدرك المفتوح، وعيناك هناك، في المتسع الرمادي، في أعشاش الصفيح، في الوجوه المشروخة، وراء الصفيح والطين والخوف، هناك، ترى، مجنوناً لأول مرة، اليد هابطة بأصابعها، بعضلاتها وتقلصاتها، بعنفها الخام، ودربتها على القتل، كانت في صدرك، تهمس لك، تغني وتحلم، والأيدي تهبط، تهبط من العلو، من الدم تسقط على ظهرها: إيمان، تقبض في اللحم، تنزعه وتنزعها، وأنت هناك، أسفل الميدان، لاترى إيمان، تبحث عنها، في حين أنك رأيت الأيدي تهوي وتهوي، هناك مقتلعاً ومكسوراً، والعيون الرخوة تسيل

في الظلمة ترقبك، خلف الجدران والنيون، خلف السياحة والفنادق، والتصاوير، أسفل الميدان، مجنوناً لأول مرة، تبحث في الزحمة ولاترى.


حصان

حصان أبيض انفك من سيوره الجلدية وانطلق في شوارع المدينة. كانت المصابيح مضاءة في الشوارع الكبيرة، وفي الإعلانات وواجهات المحلات. كان يصهل ويجتاز الحواجز المعدنية غير عابىء باتجاهات المرور. كانت الشرارات تندلع تحت حوافره ولا يلتفت الجالسون على المقاهى. طفل في يد أمه شاهده وراح يلتفت إليه ويسأل،زجرته أمه وأخذته إلى الناحية الأخرى. كان الحصان يخترق قلب المدينة إلى نقطة مجهولة، وكان جسده الأبيض الفضي المتموج يندفع كأن رعداً يقصف داخله ويقذف به دون هوادة، أما عيناه، فقد كانتا عينين دامعتين فقدتا الرغبة في الرؤية.

سقوط حر

(١)

قبل خروجه من كشك التذاكر، اعتزم أن يصعد جبل الحجارة. فتح الحاجز الخشبي.صدمته رائحة الليل، ودخان الحفلة الأخيرة. سار تحت الأبطال والخيول. سلم الإيراد وبقية التذاكر.

كان الإسفلت بارداً، والنساء واقفات تحت سماء مسدودة، يتابعن السيارات الملاكي لزبائن آخر الليل. كان النيون لم يطفأ بعد، ومزيكا الراقصات تأتي من بعيد، عبر الحدائق والاسوار. فكر أنّ وقت التراجع قد مضى، وأن عليه الذهاب، ربما كان ممكناً ألاّ يصعد، قبل أن يراها مذبوحة في الصالة، ودمها مختلط بقشر اللب والسوداني.

لف الشال حول رقبته، وراح يصعد نحو الجبل، مخلفاً وراءه رائحة الكبد المقلي والسجق، والنساء. النساء خاصة، يرتدين معاطف صوفيه مهترئة في عز الصيف، تحتها لاشيء، سوى صدروهن وأفخاذهن المتورمة. يقفن أمام شباك التذاكر، يصطدن تلامذة يوم الخميس، بعد صفقات محسوبة. بمرور الوقت عرفنه، كن يقلن: أكل عيش. وكن يصادفنه في المترو«فيقطعن» له، وكان يرفض فيحلفن، ويوم علم صاحب السينما بأنه يبعدهن، سالت بسمته على الحاجز، قال: مرة تانية أكرهك. وأشعل سيجارة، قرّب النار من عينيه قال: كده لأياشاطر.

(٢)

كان بحر من النور يتراجع، فيما يصعد نحو جبل الحجارة مثلث الأضلاع، كان وحده يمشي ملفعاً بشاله، من فوقه الكشافات الساخنة، وحوله رياح صحراوية وصفير. حاول أن يحدد وسط شلالات الضوء، في أي مكان تقع حجرته، وأين ترقد أمه الآن فوق السرير، منتظرة أن يدق الباب ويدخل ،بارداً وليلياً، حاملاً البرتقال ونصف فرخة. ومن أين تأتي النساء، في معاطفهن المهترئة، وعطورهن الرخيصة، يفتشن عن الأولاد يوم الخميس، بينما يسيل منهن دم الحيض؟

ضرب قبضته في زجاج الليل، انفتح لحم يده. لم يستطع زحزحة الجبل عن كتفيه. قال في التحقيق: أعرفها، قطعت لنصف هذه المدينة تذاكر. لكني أعرفها. كانت ضفائرها محلولة، وفي عينيها جوع وقسوة.

ومن خلفه جبل يصعد. حجرياً قديماً نحو سماء صلبة، وكان يجري حول الجبل. في رأسه جيوش نمل، وكانت المدينة ابتعدت. اختنقت في النور، في آلاف التذاكر، وأفلام الأبطال، وهوى ليلى مراد.

صرخ: أعرفها. أعرفها.

وكان المعلم يصيح: عندنا دراما وأكشن وشكس. هندي وعربي. وكنت حملت الكتب وقذفتها من النافذة. سألتني أمي:

مش هتذاكر؟ قلت: ماليش نفس.

وكنت أرجع آخر الليل، أجدها صاحية، تحت سقف عال. وحدها تنتظرني. كنت أتساءل مافائدة أي شيء. كانت رغم ذلك تضحك. كنت أعرف أن في بطنها مرضاً، وأنها تقاوم لأجلي. وأنها سوف تموت ذات ليلة، وأنا أقطع التذاكر، لكل هؤلاء الناس الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني، وكنت أشعر كل يوم أنني أغرق في الدم الفاسد.

(٣)

وقف أمام المدخل، صغيراً في ملابسه، مندهشاً وغريباً، عند القاعدة الراسخة، وهبات الريح محملة برائحة البول، آتية من الفجاج، من تاريخ الأجداد. انطفأت بسمة على شفتيه، أجداد؟

شعر بمعدته حمضية. رفض أن يتقيأ. كان عليه أن يصعد، مضى وقت التردد. كان ذلك يطاردني، ويغلق السكك في وجهي، بعد أن ذبحوها في مقاعد الحفلة الأخيرة، بنفس التذاكر التي سلمتها لهم. كانت صغيرة وجديدة، بشعرها دبابيس ووردة، وكانت صعبة وجريئة، وكنت خلف الحاجز، أراه يلوح بيديه الصخريتين، مشيراً لصور الممثلات خلف الزجاج، وكان يزعق في وجوه الزبائن، دراما وشكس، هندي وعربي، وكان أطل علي بسحنته الصفراء وبسمته اللزجة تسيل، قال: لومش عاجب يابيه ورينا عرض كتافك.

انكسر على ذراعي زجاج الليل. بقيت شظايا في اللحم. أعطيتها نصف جنيه وطلبت منها أن ترجع. حذرتها وهددتها غمغمت بعدة أحرف، واختفت، وكان محتماً أن أطلع فوق جبل الحجارة هذا، الصاعد نحو السماء،بعد أن سمعتها في ظلام«الترسو» تصرخ كبقرة، عارية فوق البلاط، وفخذاها غارقان في الدم، ويدها تعتصر سندوتش الفول وكيس اللب، وكان الأبطال على الشاشة يشربون الوسكي في حوض السباحة، وكنت هناك، أسفل المدينة، أجري في سكك مغلقة.

(٤)

لف الشال حول رأسه. حمل نفسه. رفع قدمه. تشبث بالحجارة. وصل إلى مقدمة التدرج. قفز درجات السلم القصير. رأى كتابة ونقوشاً ومدخلاً مغلقاً. قفز قفزات قصيرة مضطربة. انزلقت قدمه. تعلق أعلى الحجر. طوحت جسمه الرياح. رأى من تحته فراغاً، ومن فوقه فراغاً، وسماءً سوداء، وكان كل شيء يبدأ وينتهي عند يديه، وكان الله عالياً، وكان وحده. داست قدمه في الهواء... شعر بوزنه يخف، كأنه ريشة سابحة، تصعد من تلقاء نفسها، وكان لا ينظر خلفه، وراءه كانت العفاريت، وخفافيش الليل، كانت السكاكين والمطاوي، تلتمع في ظلام الحفلات الأخيرة، وكانت امرأة تموت تحت سقف عالٍ، ورغم ذلك تضحك، وكانوا ذبحوا طفلة في الترسو. شعر كأنه من يومه الأول يصعد، صعوداً حراً خافتاً، فوق... فوق. وكانت قدمه تلمس

الصخور لمساً سريعاً، كأنها تمنح القبلات. انفتح صدره للهواء. جلس فوق القمة، ابتسم، رأى السماء تنفتح. ألقى شاله وحذاءه، وقف عرياناً خفيفاً.

همس: لست خائفاً، وكان جسمه ارتاح فاستلقى، وكان نفسه يتردد هادئاً دون صوت.

(٥)

حاول أن يضع قدماً بين صخرتين، انزلقت يداه المتشبثتان، وكان كل شيء يبدأ وينتهي بيديه. ترك نفسه للفراغ، الفراغ الفسيح، بلاعوائق ولا أضواء، بكل جسمه نحو الأرض المنبسطة، أمام مدينة تطفىء أنوارها لتنام.

ثلاثة عصافير خضراء

الأسطى عبده «الأيمَجي» جارنا، ترك ابنه أسعد في الدكان وسافر إلى العراق. كان أسعد ولداً طويلاً أبيض ذا شعر مائل إلى الاصفرار. كان في غيبة والده، يأتي بعد أن يخرج من المدرسة الإعدادية إلى الدكان يفتحه ويطعم العصفورين الأخضرين المعلقين في قفص أعلى الباب ثم يغلق الدكان ولا نراه إلا والشمس في صفار العصاري، يفتح الدكان ويكنس العتبة ثم يرش الماء ويأتي بالمقعد الزان من الداخل، يضعه أمام المحل ويجلس في الطراوة يذاكر في كتابه. لم يكن في الأمر إلى هذا الحين أي مشكلة، ولا كنا نتوقع أي شيء يخرج أسعد عن هذا المسار.

وفي يوم، سمعنا في حارتنا- المحبة للتهويل- أن الولد أسعد، بعد أن فتح الدكان وكنس العتبة، ورش الماء، وجاء بكتابه وجلس على الكرسي الزان وراح يقرأ. حضر اثنان من مخبري القسم الذي يجاورنا وانتزعا الكتاب من يده. ذهب الولد أسعد أمامهما يتساءل عما حدث فإذا بالمخبر الذي اسمه مختار، الملقب بـ«الونش» يلكمه في بطنه، وقبل أن يفيق أسعد من تقوسه وتأوهه، سقطت كف مختار على وجهه فأردته في كومة واحدة.

اجتمعت حارتنا حول مخبري المباحث اللذين وقفا لوهلة صامتين، يتصاعد من رأسيهما دخان أسود، وبين أقدامهما الولد أسعد يئن. فيما بعد قال حماده البقال، ابن عم حامد البقال إن الونش كان يبدو كقطعة خشب انتزع من أنحائها المسامير بعد أن سودها الهباب. أما الآخر، الذي تراه حارتنا لأول مرة. فقد كان شاباً يرتدي قميصاً وبنطلوناً ويسرح شعره على جانب مثل عبد الحليم حافظ. قال حماد إنه أمين شرطة جديد في القسم.

سألت حارتنا وهي تحسب وقع كلماتها«ما الحكاية يامختار؟» زمجر مختار مثل«رابوب» مسح الأخشاب، وانحنى على الولد أسعد قبض عليه من قبة قميصه؛ ووجه أسعد صار كورقة بيضاء:«ما الذى فعله أسعد ياحصول مختار؟»

من الرذاذ الخارج من فمه، فهمت حارتنا أن البيه ضابط المباحث يريد الولد أسعد.

«وماذا فعل أسعد ياحكمدار مختار؟»لم يردّ مختار. فقط، أخذ في وجهه ووجه حارتنا، كعربة الزفت مشتعلة النار، والولد أسعد ميت في قبضته.

تكأكأت حارتنا، وهي دائماً ما تتكاكأ– لافرق بين الملمات والمسرات– إلى مقهى«بصل»، وإلى رخامة دكان حماده البقال ابن عم حامد البقال، وحول بنوك دكاكين الأويما والنجارة... يتساءلون عما فعله الولد أسعد ابن الأسطى عبده الأيمجي جارنا الذي– لما وقفت الحال– سافر إلى العراق. وتفتق ذهن حارتنا المليء بالمآسي عن أن الولد أسعد لابد فعل فعلة ما. لكن حماده البقال، أعاد على آذانهم ما يعرفونه أصلاً، وهو أن الولد أسعد خجول كالبنات، وأنه لايعرف غير إطعام العصافير والمذاكرة وأنه هادىء كوالده.

فوجئت حارتنا، التي تكأكأت، حوالي المغرب بالولد«حسونه» التخين ابن الشهاوي بائع السمك في سوق السمك الكبير، يأتي جرياً ووجهه مخطوف. قال وهو يمط رقبته ليأخذ أنفاسه: إنه صعد فوق سور القسم من وراء بيتهم وسمع أسعد وهو يصرخ كلما

سقطت عليه الخيزرانة، فعرف أنه معلق في الفلقة. قال ذلك ثم انطلق من حيث جاء.

ازداد ذهول حارتنا، وراحت تِضرب كفاً بكف، ومع هبوط المساء وتصاعد رائحة البخور و«الشيش» من مقهى«بصل» راح ذهن حارتنا يسيح بما فيه من مصائب فذكرت«حسن البيسي» ماسح الاحذية وما جرى له إذ رأى«الدسوقي» المخبر داخلاً خارجاً إلى بيته في الأوقات التي توجد فيها«زوبة» التمورجية زوجته لغير عذر شرعي. نهر زوجته، وقال للدسوقي إن زوبة لم تعد تعطي حقنا. لكن الدسوقي لم يمتنع. فأشار«حسين مرجان» الكاتب العمومي على حسن أن يصعد إلى المأمور، يلمع له حذاءه ويشكو الدسوقي. تداولت حارتنا الأمر وأيدته بعد أن استشارت«بصل» الذي يصعد بالطلبات بنفسه إلى القسم وله دلال، ومعرفة بالبواطن. وكان أن صعد حسن وياليته مافعل.

قيل: استمع إليه المأمور ثم أمعن النظر في حذائه ونادى الدسوقي وعنَّفه

قيل: إنه عنف الدسوقي وحسن معاً.

قيل: إنه بصق في وجه البيسي ثم نادى الونش.

والحق إن حارتنا لم تتيقن أبداً مما قيل، فقط، راحت في هدأة الليل؛ في الهزيع الأخير منه تستمع إلى صرخات حسن البيسي ماسح الأحذية وجعيره يخترق القسم، يهبط السلالم، يمسح الإسفلت، يتشبث بحيطان البيوت، يسقط، ويزحف وحارتنا حائرة

هائجة القلب في الطرقات لاتدري ماذا يمكنها أن تفعل.

وكان أن حمل مختار «الونش» حسن البيسي وألقاه كخرقة بالية أمام سلم القسم.

من يومها يحلو لحسن أن يصطاد السمك وهو جالس على مقعد وسط الترعة، ولم تكف حارتنا- في كل مرة، عن إنقاذه من الغرق. كذلك صار يقف على باب القسم يشتم المأمور والدسوقي، ويشرح للسامعين بالتفاصيل الدقيقة... كيف أنه جامع أميهما بالأمس. وحارتنا عن بكرة أبيها تعلم أن حسن البيسي لم يعد يستطيع أن يضاجع نملة. إلى أن مل المأمور الأمر كله، أمر بترحليه إلى مستشفى الأمراض العقلية.

هكذا اجترت حارتنا نسرة من مصائبها وما كادت تقصها، حتى جاء «بصل» من القسم بالخبر اليقين. قال: إن الولد أسعد، منذ ثلاثة أيام. وهو يرش الماء أمام دكان والده الأسطى عبده الأيمجي جارنا، أصاب عربة البيه المباحث التي تصادف مرورها بعض الرذاذ. وأن البيه المباحث لم يشأ أن يعاقبه على هذه الفعلة التي قدر أنها جاءت دون قصد. لكن الذي أغضبه؛ أنه في اليومين التاليين، كلما مر، رأى الولد أسعد جالساً على الكرسي الزان واضعاً رجلاً على رجل كأنه مدير الأمن نفسه، فقرر أن يعلمه الأدب.

مصمصت حارتنا شفاهها، وتحدثت عن الظلم الذي راح ضحيته الولد أسعد. ولم يمر وقت طويل حتى جاء أسعد ماشياً على قدميه بدون مختار الونش. كان صامتاً، وكان ينظر إلى

الإسفلت كأنه يفتش عن شيءما. لم يقل شيئاً لأهل حارتنا الذين التفوا حوله.

- ولايهمك يا أسعد

- بكره تشوف فيه يوم.

- احنا قفلنا الدكان، وآدي المفتاح يا أسعد.

لكن حارتنا أدركت- فيما بعد- أن أسعد كان في دنيا أخرى. قيل: فتح أسعد الدكان، أطعم العصفورين، وأخرج الكرسي الزان وجاء بالكتاب وجلس أمام الدكان يقرأ في كتابه على ضوء اللمبة الواهي ثم قام في وقت غير معلوم ومضى.

قيل: أخذ المفتاح من«الحناوي» قبضاي عزبة حنطر، والمرشد في نفس الوقت. وذهب في سكة بيتهم.

وقيل: راحت حارتنا تنسل واحداً وراء الآخر إلى مداخل الأزقة حتى بقي أسعد الصامت وحده.

ماحدث هو أن أسعد اختفى. لم تره حارتنا أبداً. بقي الدكان مفتوحاً مضاء النور إلى الصباح. جاء أهله البعيدون مع الفجر يسألون عنه ولم يجدوه.

الشيء الغريب الذي لاحظه أهل حارتنا هو أن العصفورين الأخضرين في القفص، اللذين اعتاد أطفال حارتنا اعتبارهما عصفوري جنة قد صارا ثلاثة عصافير. لايعرفون من أين ومتى جاء العصفور الثالث. وفى صباحات وأماس عديدة، سمع صوت شقشقة كالأنين، أنين طويل شجي فى صباحات وأماسي حارتنا.

لَعَلَّهُم

لعلهم سيأتون، أخيراً، في العربة «الدودج» القديمة، يدخلون المدينة من ناحية باب الحرس، ثم يمضون قدماً في شارع الجلاء. لعلهم سيوقفون العربة أمام المقهى القديم، ويتحلقون حول طاولة، يدخنون المعسل ويشربون الشاي ويحلقون أمامهم، حيث العمارة الجديدة العالية. لعلهم سيأتون، ويدخلون المدينة ويستدلون على العنوان، ويوقفون عربتهم أمام المبنى الخرساني الذي لم يكتمل، ويترجلون في الميدان الواسع، تحت مصابيح عامود النور الخماسية، حيث تعبث الريح بجلابيبهم الواسعة، وشيلانهم الملتفة حول رؤوسهم. لعلهم سينظرون إلى البيت من بعيد، ويتجهون إليه. لعلهم سيحملون الأشياء التي تبعثرت منذ زمن، في شوارع ومدن وأسفار. لعل ذاكرتهم عامرة بأسماء الأولاد الذين تفرقت بهم السبل. لعلهم يأتون، أولا يأتون.


مسافة

استند بظهره على سور السيارة نصف النقل، مدّد رجليه، قرّب يده المجروحة من فمه، أحكم الرباط حول الجرح بأسنانه ويده الأخرى. كانت السيارة ترتج في المطبات والحفر، وكانت الاصطدامات والارتجاجات تزيد من رغبته في التقيؤ، وفي العتمة. كان نور العربة يكشف مياه الملاحات القاتمة وأكوام الملح على جانبي الطريق.

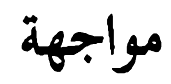
في الكابينة، كانوا ثلاثة، السائق ورجلان. رجّح أن الذي يجلس إلى جوار النافذة هو من لمحه يقف قرب المرتفع الرملي، وهو الذي طلب من السائق أن يقف بعد أن تجاوزته العربة، وهو الذي سأله بهجة جافة: بتعمل إيه هنا؟. لم يتبين ملامحه ولم يستطع الرد. كانت وجوه الثلاثة تطل عليه في ضوء الكابينة الخافت، فقط راح يحدق في سجائرهم المشتعلة. أشار له الذي يجلس إلى جوار النافذة أن يصعد. أمسك السور بيده الأخرى وقفز إلى الداخل.

كان وجهه تجاه الطريق الإسفلتي الممتد وسط الرمال، وكانت الرياح تأتي محملة برائحة البحر. شعر بضغط سائل حمضي يتصاعد داخله ويكاد ينفجر في فمه. نظر إلى قطع هائلة من السحب تتداخل. فكر أنه لايدري إلى أين سيذهبون؟ فكر أنهم قد يتركونه قرب أول عمران، أخرج علبة السجائر من جيبه، حاول إشعال عود كبريت مرات عديدة، وفي كل مرة ينطفىء، أخفى العود بين كفيه، قرّب السيجارة من اللهب، جذب نفساً، ارتكن برأسه على حافة السور.

كان الطريق الإسفلتي يلتوي ويتراجع أمامه. فكر أن سِكّته

طويلة وأنهم منذ اقتحموا الباب وهاجموه بالسكاكين لن يتراجعوا، ولن يكفوا عن مطاردته في كل طريق. تحسس الجرح بأصابعه. شعر بثقل في ذراعه وبرائحة عطنة تفوح من بين فخذيه. تذكّر أنه لم يغتسل منذ أسابيع.

عند مزلقان القطار توقفت السيارة بفرملة قوية. بدا له أن السائق يزعق، نظر إليه من زجاج الكابينة. كان يشيرله بيده أن ينزل. قفز من الصندوق إلى الإسفلت. مدّ يده بالنقود للسائق. انطلقت السيارة في الطريق الموازي للسكة الحديد. ظل يتابع نورها إلى أن اختفت. ألقى السيجارة ثم راح يصعد إلى الناحية الأخرى من المزلقان، فيما كان مطر خفيف يسقط على وجهه.


مواجهة

وقف عارياً حافياً فوق بلاط الصالة، راح يتطلع إلى الفراغ الهائل بين الحيطان. كانت الحجرات مفتوحة على الصالة، وكانت الأشياء مقلوبة والملابس متناثرة على الأرض. فكر إن كان يمكنه إعادة ترتيب كل شيء؟ وقف تحت المصباح الكهربي، مافائدة ترتيب أي شيء إن كانوا سيأتون في الصباح، يطنون، يشيعون الفوضى، ويطبعون وحل نعالهم على«كليم» الحجرة، ولا يتركون ملابسه الداخلية قبل أن يفتشوها. فكر أنهم لن يكفوا، لأنهم يعتقدون أن ذلك حقهم. كانت النوافذ مغلقة. شعر بثقل الهواء داخل الشقة، ارتمى فوق المقعد الوحيد في الصالة.

يذكر أنه نبههم مراراً الى أن لكل إنسان حياته، وأنه لايجب أن يتدخل أحد في شئونه، وكل مرة ينظرون إليه في بلاهة ويضحكون. تأكد أنهم لايصغون إليه، إنما يتفرجون عليه وهو يتكلم. شعر بالضوء ينصبّ ساخناً فوق رأسه. فكر أنه مل الاستيقاظ على صوت فتح الأدراج وتحطم الزجاج. يذكر يوم أمسك«المقشة» الخشبية وواجههم، أسقطوه فوق البلاط وداسوا في بطنه وانطلقوا إلى الحجرات يكسرون ويفتشون ولم ينصرفوا إلا بعد أن هدّهم التعب، يذكر أنه ظل يبكي طوال الليل. كانت حجرة النوم غارقة في الظلام والرائحة العطنة. أضاء نورها. كان السرير مفككاً والمرتبة ممزقة على الأرض. أحس بجسمه مرتخياً، وإذ يلتفت... لمح وجهه معفراً، وقف هنيهة بين المرآة والأشياء. اجتاحت سخونة مفاجئة رأسه، فكر: إن كانوا يأتون للعبث بالأشياء فما فائدة الأشياء؟ قفز وسط الكراكيب، التقط جلباباً وارتداه، فتح نوافذ الحجرات ونافذة المنور، ابتدأ بحجرة النوم، رفع المرتبة، ألقاها من النافذة، راح يفصل

أجزاء الأثاث ويطوحه، قطعة قطعة، كل شيء، الملابس والأواني والكتب والأوراق. كان جسمه يعمل بنشاط غريب عليه، وكان وقع ارتطام الأشياء يحمسه إلى أن يقذف لأبعد مسافة.

اندفع تيار هواء بارد إلى البلاط ينتظر مجيئهم. لحظة دوران مفتاحهم في طبلة الباب وقف بجسده الفارع محيياً ضاحكاً. سمع ضحكه يتردد في المساحات الفارغة. راحوا يقتربون منه بينما هو مستغرق في الضحك.

جُرح

كان جالساً أمام المنضدة القديمة، بعد قيلولته المضطربة، وكانت بقايا شمس صفراء تتسلل خلسة بين الستارة والجدار. أرهق السمع هنيهة. رجّح أن هذه هي أصواتهم.

- إذن لقد جاؤوا.

هكذا، في قيلولات عديدة ودّ لو سمحوا له بالمشاركة. لكنهم كانوا يدخلون إلى الحمام أو إلى الحجرة الجانبية المطلة على الزقاق. قلما تحدث إليه أحد منهم. فقط، هذه المرة أراد أن يسألهم: إن كانوا يرغبون في وجوده هنا؟

استند بمرفقه على مفرش المنضدة ذي الزهور المنمنمة، وأصدر سعلة صغيرة. انتظر برهة لكن الأصوات المعتادة تواصلت أكثر حدة من ذي قبل. اتكأ على عصاه وراح يجرجر ساقه. خيل إليه أنهم تجمهروا دفعة واحدة في ظلمة الصالة التي صارت أشد كثافة. ميز بين أيديهم معدات من كل نوع(بلطة. مصفاة مطبخ. مقص. ألواح سرير. خلاط عصائر). اجتمع الأربعة لوهلة ثم تفرقوا سريعاً في انحاء الشقة. خامسهم كان يعتلي سلماً ويدق مسماراً في الجدار.

- إن.. إن كنتم...

لم يكمل عبارته، إذ فاجأه دوار خفيف.

ارتكن بظهره إلى الجدار ، ورفع عصاه.. تساءل: كم من السنين مضى ولم ينتبهوا؟

كانت الظلمة تتكاثف، وكانت روائح طبخ تهب من أماكن

بعيدة. فتح أزرار بيچامته، وراح يتحسس أعلى صدره ثم كشف عن الجرح صارخاً.

- هل رأيتم؟

توقف الدق برهة، ثم ارتفع اللّغط من الحجرة الجانبية وانتشر إلى الصالة والحمام.

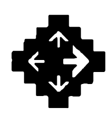
وقف في مكانه يرقبهم وهم يطفئون سجائرهم ويسحقون أعقابها بأقدامهم ويخرجون واحداً واحدا.

المحتويات

صدر للمؤلف

◆ **شتاء داخلي**: (مجموعة قصص) - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢ . - (مختارات فصول؛ ٧٣) .

◆ **ورود سامة لصقر**: رواية. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٣ .



إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

روايات

اللجنة/ صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل (الكتاب الأول)/ إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو/ إدوار الخراط
زمردة أيوب/ بدر الديب
صخب البحيرة/ محمد البساطي
متون الأهرام/ جمال الغيطاني
العاشق والمعشوق/ خيري عبد الجواد
وردية ليل (الكتاب الثاني)/ إبراهيم أصلان★



★ قيد النشر

قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير/ عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي/ إدوار الخراط
القمر في اكتمال/ نبيل نعوم
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا/ محمد البساطي
رجفة اثوابهم البيض/ يوسف المحيميد
شرفات قريبة/ هناء عطية
صياد في قفص/ عبد الحكيم حيدر
عرائس من ورق/ أحمد زغلول الشيطي
الرجل الذي عرف تهمته/ لطيفة الزيات



شعر

فاصلة ايقاعات النمل/ محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج/ إبراهيم داوود
فقه اللذة/ حلمي سالم
لا نيل إلا النيل/ حسن طلب



عيون الأدب الأجنبي

عبدة الصفر/ ألان نادو
مدام بوفاري/ جوستاف فلوبير

المكان/ أني إرنو
الكلمات/ چان پول سارتر
الأحمر والأسود/ ستندال
الآثار الشعرية الكاملة/ إديث سودرجران
ديرپارم/ ستندال★
چاز/ توني موريسون★
الأسير العاشق/ چان چينيه★
فعل للذكرى/ ديديه دينتكس★
الضفة الأخرى/ چوليان جراك★
أعمال رامبو الكاملة/ أرتور رامبو★
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الأول/ مارسيل پروست★



دراسات

مسرح الشعب/ د. على الراعي
من أوراق الرفض والقبول/ فاروق عبد القادر
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث/ د. سيد البحراوي
الكتابة عبر النوعية/ إدوار الخراط
يوميات الحب والغضب/ فريدة النقاش



دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب العجائبي/ تزفيتن تودوروف
الوضع ما بعد الحداثي/ چان - فرانسوا ليوتار
مجتمع الفرجة/ جي ديبور

تاريخ القرصنة البحرية/ باتسيك ماخوفسكي
كبش الفداء/ رينيه جيرار★
مدخل إلى الشعر الشفاهي/ پول زمتور★
حدود حرية التعبير/ مارينا ستاج★



كتاب شرقيات للجميع

قصص التحول في الأدب العالمي الحديث:
الأنف/جوجول ◆ المسخ/كافكا ◆ الثدي/روث
أيام من حياتي/ هرمان هسه
من مجمرة البدايات/ محمد عفيفي مطر
اثر العابر/ أمجد ناصر
الدليل اللغوي العام/ سليمان فياض★
حمار البحر/ خالد عبد المنعم★
حوريات البحر/ ترجمة إدوار الخراط★
شهرزاد في الفكر العربي الحديث/ د. مصطفى عبد الغني★



فنون

ناجي العلي في القاهرة/ ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)
لغة السينما / علي ابو شادي ★





لُهاثُ مكتوم
ولحظةٌ تخبو ...

« استند بظهره إلى الجدار ، شَعَرَ بالماء والصابون يتجلدّان على جسمه ، فكرّ أنهم سيُنقذون ما جاؤوا من أجله ، وأنه على استعدادٍ لأي شيءٍ . خشي أنهم قد يُلاحظون وجوده إذا ما عَبرَ الصالة فلا يتراجعون . وفي ظلام الصالة رأى المقاعد ، رأى الحيطان عاليةً صمّاء ، كذلك رأى الباب يتخلخل . رآهم يتحلّقون في دائرةٍ ، ثم سادت برهةٌ صمتٍ بدا له أنها لن تنتهي » .

أحمد زغلول الشيطي ، في مجموعة « عرائس من ورق » ، يكسر الزجاج أمام ذاكرة مُهدَّدَة ، بنقيضٍ لمشهد الحُلم ، عامراً في الظلام ، ومجنوناً لأول مرّة .



دار شرقيات للنشر والتوزيع